سيّدُنا

رسول الله ﷺ في القرآن الكريم

جمع وترتيب

علي الويس

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذي أرسل رسولَه ﷺ بالهدى ودين الحقِّ، ليُظهِرَه على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ﷺ حبيب ربِّ العالمين، المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وأصحابه الهداة المهتدين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

القرآن كتابُ الله تعالى، وكلامُه القديم، ووحيُه إلى خاتم رُسُلِهِ سيدنا ومولانا محمد ﷺ، أنزله الله تعالى لهداية الخلق إلى الحق، فحدَّثنا تعالى فيه عن ذاته العليَّة، وعن وجوده، وأسمائه وصفاته، وعدَّد لنا جُمَلًا من آياته الدالَّة على وجوده، وقدرته، وحكمته، وأسمائه، وصفاته.

كما حدَّثنا عن أنبيائه ورسله عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقصَّ علينا من قَصصهم ما فيه العبرة والعظة لنا.

وبيَّن لنا سبحانه اصطفاءه واجتباءه لهم عليهم السلام، وبيَّن تعالى مقامهم ومكانتهم عنده تعالى.

وحدَّثنا حديثًا خاصًّا فيه مزيدٌ من التفصيل، وبيانٌ لمزيد التفضيل لخاتم الرسل والأنبياء ﷺ ، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الهاشمي، القرشي المكي، ثم المدني ﷺ، فحدَّثنا على بشريته ﷺ، ونبوَّته ﷺ، وطاعته ﷺ، ومحبته ﷺ، وتعظيمه وتوقيره ﷺ ونحو ذلك.

فهذا بحثٌ موجزٌ لحديث القرآن الكريم عن سيد المرسلين ﷺ، لتقوية الإيمان في قلوب المؤمنين، وزيادة اليقين في أفئدتهم عنه ﷺ، إيمانًا برسالته ﷺ، وتصديقًا ببعثته ﷺ، وطاعة لأوامره ﷺ، واتباعًا له ﷺ، وحبًا له ﷺ، وتعظيمًا لقدره ﷺ، وصلاةً عليه ﷺ، وشوقًا له ﷺ.

و قد بدأ الخلل يتسرَّب إلى اعتقاد المسلمين حول كثيرٍ من أحوال هذا النبي الكريم ﷺ، ومنها ما هو كفرٌ والعياذ بالله تعالى، ومنها ما هو مزلقٌ إلى الكفر، ومنها ما يدلُّ على خلوِّ القلوب من اليقين بنبوته ﷺ، ومنها ما يدلّ على خلوها من حبِّه ﷺ، ومنها ما يدلُّ على مدى الجهل بسيرته وسنَّته ﷺ.

و لم تعد هذه التسريبات مخفيَّةٌ، وإنما يُجاهر بها أصحابها، وينشرونها ويدافعون عنها، ولو كانوا من غير المسلمين لما استغربنا، لأن الشيء من معدنه لا يُستغرب، ولكنها من مسلمين، يصلُّون، ويصومون، بل قد يكونون ممن يدعون إلى الإسلام، وينسبون إلى العلم به!!

ولقد تجرَّأ الكفَّار وتهجموا على نبي الرحمة ﷺ بأنواعٍ من الإساءات العلنية، ولعلَّ ذلك يعود إلى عوامل عدة:

منها: جهل عامة المسلمين بنبيِّهم الكريم ﷺ، فلا يعرفون شيئًا من سيرته وشمائله ﷺ، حتى البدهيات منها.

ومنها: عدم توقير وتعزير وتكريم كثير من المسلمين للنبي ﷺ، وإلا كيف يتسنَّى لمسلم أن يصف نبيَّه ﷺ بصفاتٍ لا تليق به ﷺ، وفيها الحطُّ من مكانته ﷺ، بل بلغت الجرأة من بعض هؤلاء من يرى عدم جواز قراءة آية من كتاب الله تعالى فيها إطراء لرسول الله ﷺ، حتى حصلت جفوة بين كثيرٍ من المسلمين وبين نبيِّهم ﷺ.

ومنها: ما يفعله من يُحسب على العلم من التنفير من رسول الله ﷺ خشية الغلو فيه، مما ساعد على هذه الجفوة، وعدم معرفة وقراءة سيرة رسول الله ﷺ وشمائله ، والإغفال عمَّا يجب له ﷺ على المسلمين، وإلا كيف يجوز لمسلم أن يتهم الصحابة رضوان الله عليهم بأنهم فتحوا باب الغلو والشرك بتبركهم وحُسن تعاملهم للنبي الكريم ﷺ، وهل أخذنا ديننا إلا عن طريقهم؟

ومعلومٌ أن لتلك الأقوال من التأثير في نفوس المسلمين، بل حتى غير المسلمين الشيء الكثير.

ومما يجب معرفته أن المقدَّسات عمومًا كلما كانت معظمة في نفوس أتباعها، تبقى معظمة في نفوس الآخرين.

ومنها: تفرق الأمة وتشتتها.

ومنها: تقصير المسلمين الكبير في نقل الإسلام ومنه سيرة رسوله ﷺ وشمائله وخصائصه إلى الأمم الأخرى، مع أن سيرة رسول الله ﷺ فيها من التأثير الذاتي ما لم تبلغه سيرة عظيم، أو شمائل كريم.

ومنها: تقصير كثيرٌ من علماء المسلمين والقادرين على الترجمة منهم، لم يترجموا إلى اللغات المختلفة: كتب السيرة النبوية، والشمائل المحمدية، والخصائص التي يختصُّ بها رسول الله ﷺ عن غيره من الأنبياء عليهم السلام.

ومنها: حال كثير من المسلمين الموجودين في الغرب لا يعطي صورةً صادقة وصحيحة عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، فهم ليسوا رُسُل دعوة.

فلابد من ترسيخ عقيدة المسلم في كون النبي ﷺ هو أفضل الخلق، وسيد الناس، وهو خاتم النبيين والمرسلين، وسيدهم وإمامهم، وأنهم تحت لوائه يوم القيامة، وأنهم يرغبون إليه جميعًا ليشفع لهم.

ومن محبة المسلم وتفانيه وإيمانه بسيدنا رسول الله ﷺ، نقلُ ما أكرم الله تعالى به من توقير ومحبة وتقدير وتعزير لنبيه الكريم ﷺ، وبيانُ ما خصَّه الله تعالى به من خصائص وميزات إلى العالم أجمع.[1]

ولم يقتصر هذا على أعداء الإسلام الذين تفنَّنوا في ألوان العداء والإساءة لسيدنا رسول الله ﷺ، فقد تسرَّبت هذه العدوى إلى المسلمين، فمنهم بدأ يجفُّ معين الإيمان في قلبه برسول الله ﷺ، فهو يعيش حالة جهلٍ تامٍّ به ﷺ، بسيرته، وسنته، وشمائله، وأخلاقه، وشريعته ﷺ.

ومنهم يتحدَّث عنه كما يتحدَّث عن أيِّ إنسان من لِدَاته، يدلُّك كلامه عمَّا استقرَّ في قلبه من الإيمان بنبوَّته، ورسالته، وبعثته ﷺ، فلا يصغي لأحاديثه، ولا يكترث بها، ومنهم من ينكر حجيتها، ولا يترلها من حياته حيَّز التطبيق.

ومنهم من ينسب إلى العلم والدعوة، وإذا تكلم دلَّك كلامه على أن قلبه قد خوى من أي تعظيمٍ لرسول الله ﷺ أو تكريم، فضلًا عن المحبة.

---

١ – واجب الأمة نحو نبي الرحمة ﷺ، الشيخ خليل منلا خاطر العزامي، ص٧ ومابعدها باختصار.

وكثيرون هم الذين أصبحوا يقيسون رسول الله ﷺ بما جاء عن فلان أو فلان من الشرق أو الغرب، ومعاذ الله أن نقيس رسول الله ﷺ بكلام أحدٍ من الخلق، بل نقيس الخلق برسول الله ﷺ.

وليس هذا تخيِّلًا وإنما هو وصف لواقعٍ لم يعد يخفى في المرئي والمسموع والمقروء.

من أجل هذا وذاك، وتقرُّبًا إلى الله تعالى، وتوسُّلًا إلى رسول الله ﷺ، جمعنا هذا البحث عن سيدنا رسول الله ﷺ، من كتاب الله تعالى، ودعَّمناه بما جاء أيضًا في سنته ﷺ فهي مؤكدةٌ للكتاب الكريم، ومفسرة له، ومبينة لمجمله، ومستقلة بتشريعات عنه.

أسأل الله تعالى أن يجعله عملًا صالحًا لي بعد موتي، يكرمني الله تعالى به بشفاعة سيدنا رسول الله ﷺ، وورود حوضه ﷺ، وأن يعطِّف عليَّ قلبه الشريف ﷺ، فأحيا على سنتَّه ومحبته، وأموت على مِلَّته، وأحظى في الآخرة برؤيته، وأدخل الجنة بشفاعته، و ((صلى الله على نبينا كلما ذكره الذاكرون، وَغَفَل عن ذكره الغافلون، وصلَّى عليه في الأولين والآخرين، أفضلَ وأكثرَ وأزكى ما صلَّى على أحدٍ من خلقه، وزكَّانا وإياكم بالصلاة عليه أفضل ما زكى أحداً من أمته بصلاته عليه، والسلام عليه

ورحمة الله وبركاته، وجزاه الله عنا أفضل ما جزى مرسلاً عن من أُرسل إليه)).[1]

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

١ - الرسالة للإمام الشافعي: ص١٣.

أهميَّة الموضوع

رغبنا أن يكون الحديث عنه ﷺ من خلال كتاب الله تعالى، وسنته ﷺ فهي أيضًا وحيٌ من الله تعالى بصريح القرآن الكريم، فما جاء فيها من حديث سيدنا رسول الله ﷺ عن نفسه الشريفة، إنما هو بأمرٍ من الله تعالى أن أعلم أمتك بأنك كذلك عندي، فلا أحد يعلم قدر رسول الله ﷺ إلا الله تعالى الذي أرسله ﷺ، وبيَّن لنا سبحانه في كتابه مقاماته وحقوقه وواجباته على مَن آمن به ﷺ.

فربنا تعالى قال في كتابه: ((لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)) الفتح: ٩

يقول القاضي عياض رحمه الله تعالى في كتابه (الشفا ص٥٣): لا خفاء على من مارسَ شيئًا من العلم، أو خُصَّ بأدنى لمحةٍ من الفهم: بتعظيم اللَّهِ قدرَ نبيِّنا ﷺ وخصوصِهِ إيَّاهُ بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضبطُ لزمامٍ: وتنويهه من عظيمِ قدرهِ بما تَكِلُّ عنهُ الألسنةُ والأقلامُ، فمنها ما صرَّحَ به تعالى في كتابه، ونَبَّهَ به على جليل نِصَابِهِ، وأثنى به عليهِ من أخلاقه وآدابه، وحضَّ العبادَ على التزامه وتقلُّد إيجابه. انتهى

ورحم الله تعالى من قال:

قالوا امتدح خير البرية أحمدا بقصيدةٍ تعلو برفعة شأنه

فأجبتهم مـــــاذا أقول بحقِّ مَن أثنى عليه الله في قرآنه

و يومًا ما قال المستشرق الألماني (جان ليك) في كتابه (العرب): لا يمكن أن توصف حياة محمد ﷺ بأحسن مما وصفها الله تعالى بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) الأنبياء: ١٠٧
كان محمد ﷺ رحمة حقيقية، وإني أُصلِّي عليه بلهفةٍ وشوق. انتهى[١]

فقد اهتدى إلى أن حياته ﷺ لن يصفها أحدٌ كما وصفها ربُّه تعالى في كتابه.

فتأتي أهميَّة الموضوع:

أولًا: أن نتبيَّن الصلة الوثقى ما بين القرآن: كتاب الله تعالى وكلامه، وسيدنا محمد ﷺ.

ثانيًا: القرآن الكريم تجتمع عليه كلمة المسلمين أجمع، والمعجزة الخالدة التي أعجزت المنكرين أجمع، فمن يردُّ ما جابه به عن النبي ﷺ.

ثالثًا: أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع، والتفصيل، والتفضيل.

---

١ - رسول الله ﷺ الرحمة المهداة، محمد علي الخطيب، ص١٣.

رابعًا: إخلال كثيرٍ من المسلمين بحقوق النبي ﷺ، وعدم توقيره وتقديره لجهلهم بما أولاه مولاه تعالى وأعطاه، حتى صار الحديث عن سيدنا رسول الله ﷺ كالحديث عن أيِّ إنسانٍ من عامَّة البشر، فلا حديثَ عن تعظيمه ﷺ، ولا حديث عن خصائصه ﷺ، ولا عن فضائله ﷺ، ولا عن شمائله ﷺ، ويلفظ اسمه الشريف ﷺ مجردًا عن أي لفظ تكريم وتعظيم، وسعى لذلك كثيرون حتى ذهبت هيبته ﷺ وخلت القلوب من تعظيمه ﷺ.

خامسًا: تأتي أهميَّته من كونه سار على نهج التفسير الموضوعي الذي يتحدَّث عن أحد موضوعات القرآن الكريم.

سادسًا: وهل أهمُّ من كونه يتحدَّث عن رسول الله ﷺ؟ .

فكان البحث يتضمَّن مباحث أربعة:

المبحث الأول: من هو سيدنا محمدٌ في كتاب الله تعالى؟

المبحث الثاني: ما هي مهمَّة سيدنا محمد ﷺ كما بيَّنها القرآن الكريم؟

المبحث الثالث: ما هي المكانة و الخصائص التي يُسجِّلها كتاب الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ؟.

المبحث الرابع: أهمُّ فصول سيرته ﷺ التي ساقها القرآن الكريم والعبر منها.

وفي ضمن هذه المباحث مطالب.

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وأن يهدينا سبيل الرشاد، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث هاديًا للعباد ﷺ.

المبحث الأول: من هو سيدنا محمد ﷺ في كتاب الله تعالى؟

المطلب الأول: بشرية سيدنا رسول الله ﷺ

جاء في كتاب الله تعالى أن سيدنا محمدًا ﷺ ما هو إلا نبيٌّ من البشر أرسله الله تعالى إلى الناس كافَّة، فأول ما قرَّره كتاب الله تعالى: بشريَّته ﷺ، فقال سبحانه: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} الكهف: ١١٠ وقال سبحانه: ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)) فصلت: ٦

وقرَّر هو ﷺ هذه الحقيقة عندما أراد منه المشركون ما أرادوا، فقصَّ علينا ربنا تعالى هذا الحوار فقال تعالى: ((وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا)) الإسراء: ٩٠ – ٩٣

وبيَّن سبحانه أن بشريَّة الرسل عليهم السلام هي ما منع المستكبرين من الإيمان بهم، فقال تعالى: ((وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)) الإسراء: ٩٤

وبيَّن تعالى أن البشر لا يصلح لهم إلا الرسول من البشر، لتُفهَم مُخاطَبَتُهُ والانتفاع بِالْأَخْذِ عَنْهُ، فقال تعالى ردًّا على الذين قالوا: لو أرسل الله تعالى إلينا ملكًا، فقال تعالى: ((وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ)) الأنعام: ٨ – ٩ ، أي: لو كان كذلك لالتبسَ عليهم الأمر كما يلبسونَ على أنفسهم فِي قَبولِ رسالة البشريِّ، كما قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا} [الْإِسْرَاءِ: ٩٥] وموقفهم هذا لم يكن موقف جاهلٍ وإنما هو موقف مسكتبر.

فمن رحمة اللَّه تعالى بخلقه أن أرسلَ إلى كلِّ صِنفٍ من الخلائق رُسُلًا منهم، لِيدعُوَ بعضُهُم بعضًا، ولِيُمَكِّنَ بعضهم أن ينتفعَ ببعضٍ في المخاطبةِ والسُّؤالِ، كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} الآية [آل عمران: ١٦٤].

فهو إذًا ﷺ بشرٌ كأحد أفراد البشر في الخَلْق، لكنَّه مختَصٌّ من الله تعالى أنه يوحى إليه، فهو ﷺ بشرٌ ولكن ليس كسائر البشر، فهو مخصوص بالرسالة، ومؤيد بالوحي، ومعصوم من الخطأ، ومحفوظٌ من القتل، كما أن الياقوت من جنس الحجر وليس كسائر الأحجار.

هذا أول ما حدَّثنا عنه القرآن عن سيدنا محمد ﷺ: حدثنا وقرَّر في نفوسنا بشريَّته ﷺ.

وقرَّرته السنَّة أيضًا، فقد كان المصطفى ﷺ يُذكِّر أصحابه بين الفينة والأخرى، وخاصةً في مواطن الخصام والاحتكام، ففي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: إنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكُم، أَنسَى كَمَا تَنسَون، فإذا نَسيتُ فذكِّروني.[1]

وفيهما أيضًا عن أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: إنَّما أنا بشرٌ، وإنَّهُ يأتيني الخَصمُ، فلعلَّ بعضكُم أن يكون أبلغَ من بعضٍ، فأحسِبُ أنَّهُ صدقَ، فأقضِيَ لهُ بذلكَ، فمن قضيتُ له بحقِّ مسلمٍ، فإنَّما هي قطعةٌ من النَّار، فليأخُذها أو فليترُكها.[2]

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: اللهمَّ إنَّما محمَّدٌ بشرٌ، يغضبُ كما يغضبُ البشرُ، وإنِّي قد اتَّخذتُ عندكَ عهدًا لن تُخلِفَنيهِ، فأيُّما مؤمنٍ آذيتهُ، أو سَبَبتُهُ، أو جلدتُهُ، فاجعلها له كفَّارةً، وقُربةً، تُقَرِّبُهُ بها إليكَ يوم القيامة.[3]

---

١ - البخاري، رقم: (٤٠١) مسلم، رقم: (٥٧٢)

٢ - البخاري، رقم: (٢٤٥٨) مسلم، رقم: (١٧١٣)

٣ - مسلم، رقم: (٢٦٠١)

وهذه البشرية جعلت حياة رسول الله ﷺ كحياة البشر، دون تميُّز عمن حوله، لذلك كان الأعرابي إذا غشي المجالس يقول: أيكم محمد؟.

ذكرنا هذه النماذج لا على سبيل الاستقصاء، لنرسِّخ الحقيقة التي تؤكد البشرية للرسل، وأنه يجري عليهم ما يجري على سائر البشر، من خضوعهم لقوانين الحياة، من الولادة والوفاة، والصحة والمرض، والطعام والشراب، والغضب والرضا، وما إلى ذلك من الخصائص والصفات التي غرزها الله تعالى في طبائع البشر وكينونتهم، وأودعها فيهم، وهذا من ((الأمور المقرَّرة شرعًا، وعقلًا، وواقعًا: أن الرسول ﷺ بشرٌ يوحى إليه، وهي حقيقة أكَّدها القرآن الكريم، واعتبرها من الأمور المحسوسة غير القابلة للتشكيك أو المساومة، لما للغفلة عنها من الأبعاد والآفاق والتداعيات الخطيرة، في مجال العقيدة والعبادة والسلوك.

وحسبنا في ذلك ما قصَّه القرآن الكريم علينا من صور الضلال والتضليل الذي وقع به أصحاب الأديان السابقة، ممن قالوا: المسيح ابن الله، وعُزيرٌ ابن الله، وما كان لذلك من المضاعفات التي أصابت الركيزة الأساس، والمنطلق الأول: عقيدة التوحيد أو التديّن بشكل عام، والآثار الشركية الخطيرة التي ترتبت على ذلك في النظر للخالق، والحكم على القدرة والإرادة والفعل من خلال صفات المخلوق، والنظر للرسول المخلوق العبد، ومنحه من القدرة والإرادة وفعل الخوارق والقدسية من خلال

صفات الخالق سبحانه وتعالى، وانعكاس ذلك فيما بعد على ممارسات رجال الدين في التسلط والاستغلال، والتميُّز عن خلق الله تعالى بما يدَّعون خلاف الألوهية ووراثتها، حتى جاء الإسلام، وصوَّب الأمر، وأعاده إلى نصابه، على مستوى العقيدة، والعبادة والسلوك، والكون والحياة.

إنه التصويب لمسيرة الحياة على مستوى الإنسان والزمان والمكان.)).[1]

لقد هيَّأ الحقُّ سبحانه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لتلقي خبر وفاته ﷺ الذي هو من مستلزمات بشريته، وقد كتب الله تعالى عليهم الموت ولم يكتب له الخلود، هيَّأهم بقوله تعالى: ((وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)) الأنبياء: ٣٤ - ٣٥
وعندما أُشيع خبرُ مقتله ﷺ في غزوة أُحُد، قال سبحانه: ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)) آل عمران: ١٤٤ فلما وقع عليه ﷺ الالتحاق بالرفيق الأعلى تلقوا الخبر بتمام الرضا والتسليم واليقين والثبات.

---

١ - في منهجية الاقتداء، عمر عبيد حسنة، ص١٥.

أثر اليقين بهذه الحقيقة في القلب على العقيدة والعبادة والسلوك: حكمة تقرير وتأكيد القرآن على بشرية الرسول ﷺ، مع أنه لم تكن هناك شبهة على بشرية محمد بن عبد الله ﷺ، عندما اصطفاه الله تعالى نبيًّا ورسولًا، وعندما صدع بأمر ربه، وعندما دعا الناس إلى التوحيد وإلى الإيمان به نبيًّا ورسولًا، فهو نشأ يتيمًا في الفرع الهاشمي، من قبيلة قريش بمكة، وقد شبَّ الشباب الطيِّب المألوف من البشر المستقيمين، والسرُّ يكمن في تأمل رسالة سيدنا محمد ﷺ وما جاءت به[1]:

أولًا: الإيمان ببشريَّته ﷺ كما أخبر بها كتاب الله تعالى، وأخبرنا بها المصطفى ﷺ، فليس هو بمَلَكٍ، وهو مركَّبٌ مما رُكِّبَ منه البشر، فجسده وبُنيتُه ﷺ مركبة من الأشباح والأرواح كسائر البشر.

ثانيًا: في بشريَّته ﷺ تحقيق الاختبار الذي أراده الله تعالى من خَلْقِنَا وإرسال الرسل وتكليفنا، ففي بشريتهم يتم الاختبار، وكم اعترض المنكرون المعترضون المعاندون على الرسل عليهم السلام، بكونهم بشرٌ يأكلون ويشربون، ويعلمون نسبهم وأحوالهم: قال تعالى: ((وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ)) المؤمنون: ٣٣ - ٣٤

---

١ - ماذا تعني بشرية رسول الله ﷺ، الدكتور محمد عمارة، مجلة حراء الإلكترونية، العدد: ٣، باختصار وتصرف يسير.

ثالثًا: لقد وصف القرآن الكريم سيِّدنا محمدٍ ﷺ بـــــــــ: (العبد) وإنما تتحقَّق العبودية التي تحقَّق بها سيدنا محمد ﷺ إلا بكونه بشرًا، لأنه لو كان ملكًا فالملائكة ليس لهم ما يجاهدونهم من النفس، والهوى والشهوة، وليس لهم عدوٌ من الشياطين، فهم مجبولون على الطاعة، أما البشر فلديهم كلُّ هذا، ورسول الله ﷺ له هذا كلُّه، ولكنه أقامه على ما يرضي الله تعالى والاستقامة على أمره تعالى ونهيه، كما أمره تعالى:((فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) هود: ١١٢

حتى شيطانه الذي سُلِّط عليه كسائر البشر أعانه الله تعالى عليه فأسلم: روى مسلم (رقم: ٢٨١٤) ، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: ما منكم من أحدٍ، إلَّا وقد وكِّلَ به قرينُهُ من الجنِّ. قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: وإيَّايَ، إلَّا أنَّ اللهَ أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلَّا بخيرٍ.

وقوله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء: (سبحان الذي أسرى بعبده) و لم يقُل: برسوله أو نبيِّه، ليُبيِّنَ أنه أسرى بعبده بصفة أنه عبدٌ مطلق لله تعالى، تحرَّر من رِقِّ الأغيار والأسباب، وتحقَّق بالعبودية الخالصة لله تعالى، فلم يلحظ رسول الله ﷺ في إسرائه ومعراجه إلا ربه سبحانه وتعالى.

وحتى يبيِّن سبحانه أن مقام الإسراء والمعراج فيه مقام القرب الخاص لسيدنا رسول الله ﷺ، فنال أعظم مقام في القُرب الخاص النبوي، وإن القُرب يكون على حسب التحقق بالعبودية لربِّ العالمين، فعلى قدر تحققك بالعبودية يكون قُربك من حضرة الربوبية.

ولما كان رسول الله ﷺ هو أعظم من نال مقامًا في العبادة والعبودية والعبدية لله تعالى – فهو ﷺ سيد العِباد والعُبَّاد- لذلك نال أعظم المقامات في القُرب من حضرة رب العالمين، لهذا قال تعالى:(بعبده) فقرَّبه بصفة العبودية.[1]

وأنت ترى العبودية في أعلى مقاماتها في حياة سيِّدنا رسول الله ﷺ، من خلال تعبّده، وتذلُّله، وتواضعه ﷺ، وذكره ودعائه ﷺ، في سِلْمِه وحربه، وعُسره ويسره، وفي غضبه ورضاه ﷺ.

روى البخاري وغيره عن المغيرة رضي اللَّه عنه، يقول: إن كان النَّبي ﷺ ليَقُومُ لِيُصلِّي حتَّى تَرِمُ قدماهُ – أو ساقاهُ – فيقال له فيقول: أفلا أكون عبدًا شكورًا.[2]

---

١ – محاضرات حول الإسراء والمعراج، الإمام عبد الله سراج الدين، ص١٦ــ ٥٣.

٢ – البخاري، رقم: (١١٣٠)